المقطع اللغوي عند الفارابي

The Syllable For El-Farabi

تاريخ الإرسال: 2018-06-28 تاريخ القبول: 2018-07-26

الأستاذة الدكتورة: أمينة طيبي

أستاذة التعليم العالي

جامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس- الجزائر

الملخص:

للعربية تفرد في مجال الأصوات يشهد به أهلها والأجانب عنها، وقد أفصح علماؤها الأوائل عن كثير من جوانب هذا التفرد، وألوانه، وخاصة في مجال ذوق الحروف المفردة، وتركيب الكلمات والعبارات منها، والمبادىء التي وضعها الصوتيون العرب الأوائل التي لاتزال مناط إعجاب كثير من المهتمين بالدراسات الصوتية في العالم.

الكلمات المفتاحية: المقطع؛ اللغة، الفارابي، الأصوات، علم الأصوات.

Abstract :

The first Arab scholars revealed many aspects of this uniqueness and its colors, especially in the field of the taste of single letters, and the composition of words and phrases thereof, and the principles developed by the early Arab voice, which is still admired by many interested in studies Audio in the world.

Keywords: section; language, Farabi, sounds, phonology.

توطئة:

فقد اهتم علماء اللغة بمجال الأصوات اهتماما لانظير له الأمر الذي أوصلهم إلى تلك النتائج المبهرة التي تستوقف كل قارىء وباحث عربي أراد الولوج في هذا المجال، وقد تنوع اهتمام القدامى بمجال الصوتيات على تنوع توجهاتهم لذلك فإنك تقف على الكثير من القضايا الصوتية الهامة والمميزة في كتب النحو والقراءات، وكتب الفلاسفة، بل حتى الأطباء والجغرافيين في بعض الأحيان([2]).

فنجدهم تناولوا الحديث عن جهاز التصويت لدى الإنسان، مخارج الأصوات وصفاتها، مفصلين بين الدراسة الصوتية، والأخرى التركيبية في الكثير من الأحيان، وهم في دراساتهم التركيبية للصوت العربي تجاوزوا المنطوق العربي إلى غيره من التأديات الأخرى، لكنهم ومع ذلك لم يهتموا بالدراسات فوق التركيبية اهتماما خاصا كما فعل المحدثون، بل إنك لتجد أصوله في متون كتبهم، دون أن يفردوا مجالا خاصا للدراسة([3]).

لكن ومع ذلك فإن غياب دراسة مقصودة من هذا النوع في تراثنا اللغوي لايعني مطلقا إغفال أوعدم اهتمام المتقدمين من النحاة واللغويين بهذه الظاهرة، بل لقد وصلنا عنهم إشارات مهمة يمكن عدها إرهاصات أولى في هذا الجانب، منها ما يتعلق بالدراسة المقطعية، ومنها ما يسلك ضمن دراسة النبر والتنغيم([4]).

فما المقطع؟ ولماذا الدراسات فوق المقطعية؟

مفهوم المقطع:

يجمع أغلب علماء الأصوات أن الدراسة الصوتية للأصوات مفردة من حيث المخارج والصفات غير كافية باعتبارها تخضع "لقواعد معنية في تجاورها وارتباطاتها ومواقعها"([5])، وعليه فدراسة التشكيل الصوتي تقتضي دراسة الظواهر التي لاترتبط بالأصوات في ذاتها بل المجموعة الكلامية بصفة عامة"كالموقعية والنبر والتنغيم" أي دراسة سلوكها داخل التركيب.

ويبنى التشكيل الصوتي على إيجاد"المقابلات الصوتية الموجودة في اللغة والتفريق بين معانيها"([4])، وهي خطوة تلي الدراسة التصنيفية للأصوات، وتستقل عليها استقلالا تاما، فتحديد التقابل بين صفات الأصوات من جهر وهمس، ثم بين طولها وقصرها ونبرها وعدمه، وبين اللحن الأول واللحن الثاني...كل هذه الوسائل وما يتعلق بها هو الأساس الذي يبنى عليه علم التشكيل الصوتي.

وللغة أنظمتها المتعددة، منها النظام الأصواتي الذي يخضع لتوزيع منسجم، حيث لايتعارض فيه صوت مع صوت آخر، والنظام التشكيلي الذي لا يتعارض فيه موقع مع غيره، وكذا النظام المقطعي والنبري والتنغيمي فهي منظمة من النظم، يؤدي كل منها وظيفة بالتعاون مع باقي النظم.

لم يتفق علماء الأصوات على تعريف واحد للمقطع، ومرد ذلك اختلاف الرؤى حول الوظيفة الأكوستيكية الفيزيائية أوالوظيفية أوالنطقية للمقطع، ومع ذلك هم يتفقون على أهميته في الدراسة الصوتية باعتبار كلام الانسان عبارة عن مقاطع صوتية، فالمقطع "يشكل درجة في السلم الهرمي للوحدات الصوتية، والتي يتشكل كل منهما من أصغر وحدة تسبقه، الوحدة الصغرى الفونيم ثم يأتي المقطع، المكون من فونيمات بترتيب معين، ثم تأتي مجموعة من النغم (قطار المقاطع) المحتوية على البنر وعلى تتابعات من مجموعة من النغم"([5]).

فالمقطع، هو مجال العمل الذي تشتغل عليه باقي الظواهر التشكيلية من نبر وتنغيم، وهو"الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها"([6]).

المقاطع إذن "تعبيرات على نسق منظم من الجزيئات التحليلية أوخفقات صدرية أثناء الكلام"([7]) أي هناك قواعد خاصة بكل لغة تحكم النظام المقطعي داخل السلسلة الكلامية ليشكل نسقا منظما تتابع فيه الجزيئات من السواكن والعلل، كما أنه عند أخرين" وحدة صوتية تبدأ بصامت يتبعه صائت وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعا بصائت"([8]).

فالمقطع نوع بسيط من الأصوات التركيبية بمعنى أنه وحدة صوتية أكبر من الفونيم(الصوت اللغوي)، يتكون من نواة تدعى النواة المقطعية، عبارة عن صائت عموما مصحوبة بصامت واحد أوأكثر. وتتصنف مكونات المقطع بالاتحاد وبنوع من التماسك النطقي(والنفسي عند بعض العلماء)([9]). فمن الناحية الفيزيولوجية، برهن "غرامون"على

المقطع ينتج عن"وتوتر متزايد لعضلات الصدر يليه انفراج وتراخ"([610])، أما من حيث الإدراك والتلقي، فإن المقطع يحد بكونه مجموعة صوتية تحوي قوة إسماع ذات حجم أعظم وتقع بين حدين([9]).

أنواع المقاطع الصوتية:

تتحدد أنواع المقاطع حسب طبيعة إغلاق جهاز النطق أوتوقفه عن الآداء، فالإغلاق التام ينشء مقاطع مغلقة، أما الجزئي فنشأ عنه مقاطع مفتوحة، كون المقطع"أصغر وحدة نطقية ناتجة عن زمن محصور بين عملية الإغلاق التام لجهاز النطق أوالإغلاق الجزئي"([11])، وهو على نوعين:

1* المقطع المغلق: وهو المقطع الذي يتنهي بصوت صامت(ص).

2* المقطع المفتوح: وهو المقطع الذي ينتهي بصوت صائت (ع)، وقد تكون هذه الحركة طويلة أوقصيرة.

يمكن التمييز بين خمسة أنساق للمقطع في اللغة العربية، وهي:

1* المقطع القصير: ويتكون من صامت يتبعه صائت قصير، فَكَتَبَ مثلا عبارة عن مقاطع قصيرة مفتوحة، وهي: /كَ/، /تَ/، /بَ/، أي (ص ع)، (ص ع)، (ص ع)، وهو النوع الذي تحدث عنه الفارابي كما سنرى.

2* المقطع الطويل: ويأتي على نوعين، مرة مفتوحا، وأخرى مغلقاً.

أ/ مقطع طويل مفتوح: يتكون من صامت متبوع بصامت طويل، ويأتي في أول كلمة، ووسطها ونهايتها، يكتب على الشكل الآتي: (س ع ع)، كقولنا: في أي /ف/.

ب/ مقطع طويل مغلق: يتكون من صامت وصائت قصير ثم صامت، أي على الشكل الآتي: (ص ع ص) ، كقولنا مثلا"من" التي تكتب على الشكل الآتي: /مَ//ن/، وهو النوع الآخر الذي تحدث عنه الفارابي.

3* المقطع المديد: يتكون من صامت وصائت طويل فصامت (ص ع ع ص)، نحو قولنا: بَاب، أي /ب//اب/، وهو من مقاطع الوقف التي تتحول إلى مقطعين آخرين.

4* المقطع المزيد: يتكون من صامت فصائت قصير ثم صامتين(ص ع ص ص)، وهو من مقاطع الوقف أيضا وعند الوصل يتحول إلى إحدى المقاطع الأخرى([12]).

هناك نوع آخر أدرجه تمام حسان، وهو مقطع يبدأ بصائت(ع س)، مع العلم أن اللغة العربية لا تبدأ بساكن، فكان الوحيد الذي أشار إلى هذا النوع ممثلا له ألف ولام التعريف(ال)، "والحقيقة أنها تكون من مقطع صامت+صائت+صامت، أي: الهمزة+الفتحة+اللام"([13]).

مثل هذه الدراسة لم تكن بعيدة عن العلماء الأوائل بل إن المبحر في تراثنا اللغوي ليقف على بعض الأمور التي يذهل أمامها باحث زاحمته كل أنواع الآلات، في حين لم يتوفر لديهم إلاحس مرهف وذكاء حاد، وقدرة هائلة على التذوق.

فقد عرف تراثنا الصوتي، كما هو في تناول النحاة واللغويين مصطلح مقطع، ولكن بمعنى المخرج، لابمعنى Syllable، يقول ابن جني: "الصوت عرض يخرج مع النفس مستبطلا حتى يعرض له في الحلق والفم والشفتين مقاطع تثنيه عن امتداده، واستطالته، فيسمى المقطع أينما عرض له حرفا"([14])، ويعود الضمير إلى الصوت، والعرض راجع إلى المقطع، ومن هنا نفهم أن ابن جني يسمي المقطع حرفا والمعروف أن المقطع هو مخرج الحرف لاالحرف([15]).

أما إذا ولجنا تراث الفلاسفة وعلماء الكلام في قسمه المتعلق بالدراسة الصوتية وقفنا على معالجة جادة للمقاطع العربية تدنوا كثيرا من تلك التي نلمسها اليوم في البحث الصوتي الحديث، فقد عرضوا للمقطع بمعناه العلمي المعهود في الدرس الحديث([3])، كما أدركوا المقاطع الرئيسية في العربية وعملوا على مايقابلها بما يناظرها في الدرس العروضي عند قدامى النحاة واللغويين.

يطل علينا الفارابي من بين الفلاسفة الذين كان لهم باع هام في مجال الدراسة الصوتية، ضمنها في كتابه الضخم الذي ألفه، فتناول فيه الصوت اللغوي الانساني الدال، والمقطع الصوتي بما يظهر قدرته على الإفادة من فكرة المقطع في دراسة أوزان الشعر، وحسن تصرفه بالمصطلح واطلاقه تسمية المقطع القصير على مايقابل الصامت المتبوع بمصوت طويل، واستعمال كلمة حرف بما يقابل الصوتية (الفونيم) وغير ذلك من مسائل الدرس الصوتي الحديث المهمة([16]).

فالصوت عنده يمكن أن يكون صوتا انسانيا كما يكون صوتا حيوانيا، والصوت الانساني يمكن أن يكون ساذجا غير مشكل، كما يمكن أن يكون صوتا يفاد منه في تشكيل الألفاظ اللغوية "فإن الانسان وسائر الحيوان المصوتة لها الطباع في كل حال من أحوالها اللذيذة أوالمؤدية نغما تستعملها، وهذه سوى الأصوات التي يستعملها الحيوان علامات يؤذن بها بعضها بعضا بأمر من الأمور. وأكثر هذه هي في الإنسان، وهي الأصوات التي يركب الإنسان منها الألفاظ، وهذه خاصة بألفاظ الإنسان والأصوات النغم التي يستعملها الحيوان عند الانفعالات الحادثة هي ليست التي يستعملها الإنسان علامة في الدلالة على الأمور، أمّا تلك فهي بمنزلة الأصوات والنغم التي تسمع من الحيوان والإنسان عند طربها، فإن في طباع الحيوانات والإنسان إذا طربت أن تصوت نحوا من التصويت، وكذلك إذا لحقها خوف صوت صنفا آخر من التصويت والإنسان إذا لحقه أسف أورحمة أوغضب غير ذلك من الانفعالات صوّت أنحاء من الأصوات مختلفة"([17]). ومن هنا جاء كلامه في موضع آخر في الأصوات الإنسانية التي يركب منها الألفاظ وهي كما قال آنفا خاصة بالإنسان" ومن فصول الأصوات الفصول التي تصير الأصوات حروفا"([18]).

فالصوت قبل أن يصير حرفا لاشأن له باللغة الانسانية المكونة من الألفاظ الدالة، وهذا يضع أيدينا على براعم البديات الأولى لما سمي في زماننا بنظرية الفونيم، والصوتيات التي هي مادة المقاطع، أوما عبر عنه بالحروف، قسمان: حروف مصوتة قصيرة، وحروف غير مصوتة، والحروف المصوتة قسمان: حروف مصوتة قصيرة، أو فونيمات مصوتة قصيرة، أوحروف مصوتة طويلة، وإطلاق مصطلح الحرف على المصوتات القصيرة دليل آخرعلى أن الفارابي تدل على

تبصره بفكرة الفونيم "والحروف منها مصوت ومنها غير مصوت والمصوتات القصيرة منها قصيرة ومنها طويلة، والمصوتات القصيرة هي التي تسميها العرب الحركات"([18]).

فما تسميه العرب حركات هو في الحقيقة حروف مصوتة قصيرة شأنها شأن سائر المصوتات الطويلة في الحرفية (الصوتية)، والمصوتات كلها قسيمة غير المصوتات في الحرفية الصوتية. فغير المصوتة بأنواعها المختلفة، هي حروف اللغة، بالمعنى الفونيمي الذي أراده من لفظة الحرف.

قال: "ومن فصول الأصوات الفصول التي بها تصير الأصوات حروفا. والحرف منها مصوت ومنها غير مصوت. والمصوتات منها قصيرة ومنها طويلة، والمصوتات القصيرة هي التي تسميها العرب حركات"([19]).

والحروف غير المصوتة منها ما يمتد بامتداد النغم ومنها ومالايمتد بامتدادها، والممتدة مع النغم هي مثل اللام والميم والنون والهمزة والعين والزاي، وما أشبه ذلك، وغير الممتدة مثل التاء والدال والكاف وماجانس ذلك([19]).

والحروف الممتدة بامتداد النغم منها ما يُبَشَّعُ مسموع النغم إذا اقترنت بها مثل العين والحاء والظاء، فاللام من بينهم تمتد وإن لم يسلك الهواء في مقعر الأنف، والميم والنون لايمتدان إلا أن يسلك في الهواء الأنف.

والمصوتات الطويلة منها أطراف ومنها ممتزجة عن الأطراف، والأطراف ثلاثة: إما الطرف العالي وهو الألف، وإما الطرف المنخفض وهو الياء، وإما المتوسط وهو الواو. والممزوجة إمّا ممزوجة من الألف والياء، وإمّا من ياء وواو، وإمّا من ألف وواو، وكل واحد من هذه الممتزجة إمّا مائلة إلى أحد الطرفين أومتوسطة غير مائلة، والمائلة إمّا إلى هذا وإمّا إلى ذاك، ولما كانت المصوتات الممتزجة بالجملة ثلاثة، وأصناف كلها واحد منها ثلاثة، صارت جملتها تسعة. ويمكن أن تنقسم كل واحد من هذه غير أن المسموعات أقسامها تتقارب تقاربا لايميز السمع بين فصولها، ولذلك ينبغي أن يقتصر منها على هذه التسعة، ويجمع إليها الأطراف الثلاثة فتصير أصناف المصوتات الطويلة المنفصلة بفصول بينة في السمع اثني عشر مصوتا([19]).

ويجمع إلى هذه من غير المصوتات الممتدة تلك الثلاثة التي لايشبع مسموع النغم، فتكون جميع الحروف التي تساوق النغم وتقترن بها ولاتنفك منها نغمة انسانية وتستعمل استعمالاسلساً وتبين بيانا غير مستكره ويحس حسا غير مستبشع خمسة عشر حرفاً.

وأما المصوتات القصيرة فإنها لاتمتد مع النغم مادامت على قصرها، فإذا ساوقت النغمة امتدت حتى لايفرق بينها وبين الطويلة([19])

أما المقطع عنده فهو حصيلة اقتران حرف غير مصوت (صامت) بحرف مصوت (صائت)، يقول: "المقطع مجموع حرف مصوت وغير مصوت"([20])، وهما نوعان فصل فيهما أيما تفصيل، المقطع القصير والطويل، يقول: "وكل حرف غير مصوت أتبع بمصوت قصير قرن به فإنه يسمى المقطع القصير، والعرب يسمونه الحرف المتحرك، من

قبل أنهم يسمون المصوتات القصيرة حركات. وكل حرف لم يتبع بمصت أصلا وهو يمكن أن يقترن به فإنهم يسمونه الحرف الساكن، وكل حرف غير مصوت قرن به مصوت طويل فإنا نسميه المقطع الطويل"([19]).

ثم يربط المقطع الطويل بالسبب الخفيف فيقول: "وكل مقطع طويل فإن قوته قوة السبب الخفيف، فذلك يعد في الأسباب الخفيفة وكل ما لحق الأسباب الخفيفة لحق المقاطع الطويلة، وسائر ما يركب تركيبا أزيد مما عددناها فإن جميعها مركبة إما عن أسباب وإما عن أوتاد وإما عنهما جميعا. وكل سبب خفيف فإنه يقوم مقام نقرة تامة تعقبهما وقفة. كذلك كل مقطع طويل"([19]).

الأمر الذي يجعلنا ندرك أن الفارابي أدرك العلاقة بين المقاطع والأسباب، وما يدعو إلى القول أن الدراسات العروضية في روحها هي عبارة عن دراسة للمقاطع في اللغة العربية، ثم يتابع هذا الربط مقارنا ما توصل إليه بنتائج الدراسات العروضية آنذاك قائلا: "وكل حرف متحرك اتبع بحرف ساكن فإن العرب يسمونه السبب الخفيف. وكل حرف متحرك اتبع بحرف متحرك فإنهم يسمونه السبب الثقيل، والسبب الثقيل متى أتبع بحرف ساكن سموه الوتد المجوع، لاجتماع المتحركين فيه، والسبب الخفيف متى أتبع بحرف متحرك سموه الوتد المفروق لافتراق المتحركين فيه بالساكن المتوسط، والسبب الخفيف متى أتبع بمتحرك فلنسمه نحن السبب المتوالي لتوالي المتحركات الثلاثة فيه([19]).

ولعلنا نلاحظ كم خلال ماتقدم حقيقة أخرى سابقة لأوانها وهي إدراك الفارابي للفرق بين الصامت والصائت والذي عبر عنه بغير المصوتة، والصائات معبرا عنها بالمصوتة، وأهمية هذه الأخيرة في التشكيل المقطعي، كما نجده استعمل كلمة–حرف– لدلالة على مصطلح صوتية أوفونيم في الدرس الحديث باعتبارها مادة المقاطع ويمكن لكلامه أن يعد بدايات حسنة لما سمي الآن بنظرية الفونيم([21]).

فالتصويت له شأن بامتداد النغم في الموسيقى ومن أجل ذلك نجده يذكر أن الذي يمتد به النغم المصوتات الطويلة، أما المصوتات القصيرة، فلايمتد بها النغم إلا إذا طال بها الصوت. حينئذ تنتقل إلى مصوتات طويلة"أما المصوتات القصيرة... وبين الطويلة"، وأنظر قوله"... امتدت حتى لايفرق بينها وبين الطويلة" كيف تجاوز باحساس صوتي سليم مايدعيه أهل اللغة من أن الحركة إذا مد بها الصوت تولد من بعدها حرف من جنسها، وهو أمر لوقال به لزعم أن المصوت القصير يمكن أن يتبعه مصوت آخر ولأدَّى ذلك إلى القول بإمكان وجود قمتي إسماع في المقطع الواحد، وهذا لايكون([21]وهذا)

كما أدرك الفارابي أن امتداد الصوتية (الفونيم) بالنغم أمر غير التقسيم المقطعي للألفاظ، فالمصوتات القصيرة تشكل مع غير المصوتات التي تسبقها مقاطع قصيرة، وهي مع ذلك لايمتد بها النغم، أما غير المصوتات الثلاثة التي تمتد مع النغم فإنه لايتكلم عليها القسمة المقطعية سواء أكانت ممتدة أم غير ممتدة، وهو أمر صحيح، لأن غير المصوت مما يوقف عليه يشكل قاعدة التالية لقمة المقطع المصوتة ولا شأن لامتداد الصوت به أوعدم امتداده في التقسم المقطعي. وفي كلامه على المصوتات في التشكيل المقطعي أمران ينبغي الوقوف عندهما: الأول كلامه على أنواع المصوتات الطويلة. والثاني: كلامه على مد الصوت بالمصوتات القصيرة وما ينجم عنه([22]).

أنواع المصوتات الطويلة:

درس الفارابي المصوتات الطويلة دراسة تطبيقية وصفية ومنطقية رياضية في الوقت نفسه وجعل كلامه عليها يعم ما يعرفه من لغات ولم يجعله خاصا بالعربية، فكان الجمع الحاصر لها لاتكاد لغة انسانية تخرج عنه ذلك أن"المصوتات الطويلة منها أطراف...خمسة عشر حرفا"([19]).

لكن المراد من كلامه عن المصوتات الممزوجة "لايمت بصلة إلى الكلام على مانسميه اليوم المزدوج Diphtong، لأن هذا إما أن يكون من مصوت قصير متبوع بنصف مصوت Semi – vowel، له قيمة صامت في المقطع إذ يشكل القاعدة الثانية للمقطع حيث يشكل المصوت القصير القمة وذلك في المزدوج الهابط نحو سوف وليس. وإما أن يكون من نصف مصوت، يشكل قاعدة المقطع السابقة لمصوت، متبوع بمصوت قصير هو قمة المقطع وذلك في المزدوج الصاعد نحو وجد، ويجد، فالمزدوج بنوعيه مركب من صوتين (فونيمين)، وكلام الفارابي كان عن المزيج لا التركيب، هذا من ناحية، من ناحية ثانية أن النغم إذا كان يمكن أن يمتد بسهولة مع المزدوج الهابط، فأنه لايمكن أن يمتد مع المزدوج الصاعد لأن"المصوتات القصيرة لاتمتد مع النغم مادامت على قصرها"([23]) والجزء الثاني من المزدوج الصاعد مصوت قصير، وكلام الفارابي كان على المصوتات الطويلة الممتدة مع النغم.

كما تكلم الفارابي على الحركة والسكون في الحرف، فاستعمل كلمة الحرف الساكن، والحرف المتحرك، فهو على خلاف اللغويين القدامى ما كان يرى أصوات المد الثلاثة حروفا بمعنى الحرف الذي يمكن أن يتحرك ويسكن، بل هي عنده مصوتات قصيرة، أمّا من حيث كل منها وحدة صوتية صغرى مميزة في اللفظ، فكل منها حرف، وماسمي بالحركات (المصوتات القصيرة) حروف أيضا بهذا المفهوم([24]).

فالفونيمات في العربية قسمان:

1* صوائت مصوتة: أ/قصيرة: كسرة، ضمة، فتحة.

ب/طويلة:

2*صوامت (غير مصوتة): وهي سائر الحروف مع الواو والياء غير المديتين، وهذه جميعا يمكن أن تأتي ساكنة أو متحركة، أي يمكن أن تأتي بعدها مصوتة قصيرة، فتسمى متحركة، وقد لاتتبع بحركة فتسمى ساكنة، مثلا: اكْتُبْ، الكاف ساكنة، والتاء متحركة بضمة فصلت بين التاء والباء.

ففي نحو قَالَ، هل نعتبر القاف حرف ساكن؟ أم هل هو حرف متحرك؟ ولكون الألف حرفا عند اللغويين القدامى وهو ساكن قالوا: أن القاف هنا متحرك وهكذا جاء قولهم بالفتحة قبل الألف مخرجا من التقاء حرفين ساكنين، ولو أن اللغويين القدامى عدوا الألف حركة طويلة للقاف، لكان ذلك المخرج الصوتي الصحيح "فخروج المصوتات من مفهوم الحرف الذي يمكن أن يتحرك ويسكن خطوة مهمة في تحويلها من مفهوم الحروف إلى مفهوم الحركات"، لكننا نجد الفارابي يصرح بهذه الحقيقة على عكس معاصريه، فلفظ الحرف عنده له استعمالان:

الأول: ما يقابل مفهومنا للفونيم"والحروف منهامصوت ...ومنها لايمتد"، وقوله"فمتى اتفق في الألحان الفارغة فبدأ بحروف غير مصوتة أردفت بمصوتات طويلة...ويطول المصوت القصير" فهو هنا يرادف بين المصطلحين، وكأن الحرف القصير هو نفسه الصوت القصير.

الثاني: مايقابل غير المصوت، أوالصوامت كما نعرفها اليوم، الذي يمكن أن يليه مصوت قصير أوطويل ([25]).

فالحرف عند الفارابي إذن إما مصوت أي صائت، وتدخل تحته المصوتات القصيرة فالطويلة، وإما غير مصوتة أي صامتة تقترن بمصوت قصير أوطويل، وفي قوله كل حرف لم يتبع بمصوت أصلاً وهو يمكن أن يقترن به فأنهم يسمونه الحرف الساكن،" فالألف على هذا ليس حرفا ساكنا لأنه لم يتبع بمصوت أصلا ولايمكن أن يقترن به"([26])

جعل الفارابي الحرف ينحصر في ثلاث صور، إما مقترنا بمصوت قصير مثلا، فالكاف حرف، والفتحة مصوت قصير، وإما مقترن بمصوت طويل، مثل كَا، فالكاف هنا أيضا حرف أتبع بمصوت طويل، وإما ألا يقرن بمصوت وهو يمكن أن يقترن به، مثلا كْ، فالكاف وردت هنا ساكنة مع أنها يمكن أن تأتي متحركة بضمة أوفتحة أوكسرة.

فالفارابي إذن أحس أنه لايمكن أن يتوالى مصوتان في المقطع الصوتي، بل لايمكن أن يتوالى مصوتان في السلسلة الكلامية باطلاق لأن المصوتات القصيرة والطويلة تمثل القمم في السلسلة الكلامية، وغير المصوتات تمثل القواعد، ولايمكن أن تتجاور قمتان دون أن يفصل بينهما صامت، "فكل قمة في مقطع يلزم أن تكون صوتا واحدا"([27]).

فالمقطع الطويل عند الفارابي يتألف من حرف غير مصوت أي صامت ومصوت طويل دون أن يفصل بينهما مصوت قصير من جنس المصوت الطويل فنجده يقول: "وأما المصوتات القصيرة فإنها لاتمتد مع النغم ما دامت على قصرها ساوقت النغمة امتدت حتى لايفرق بينهما وبين الطويلة"، فهو يشر إلى قضية هامة أغفلها القدامى، حول الحركات وفي كلامه دليل على أن المصوتات الطويلة إشباع للقصيرة فقط لا أنها نشأت من مد القصيرة" الحروف المتحركة إذا مدت حركاتها أدنى مد كانت قريبة من سبب خفيف"([28])، ونجد هذه المقاربة إلى السبب الخفيف في قوله: "وكل مقطع طويل فإن قوته قوة سبب خفيف، فهذا المد الداخل على المصوت القصير الذي كان يشكل قمة المقطع القصير يؤدي إلى جعله مصوتا طويلا يمثل قمة المقطع الطويل"([29]).

فالفارابي يسبق الدرس الصوتي الحديث كثيرا في نفيه لوجود مصوت قصير قبل المصوت الطويل، والصوامت (الحروف) عنده، إما "أن تردف بمصوتات قصيرة، وإما أن تكون ساكنة وإما أن تردف بمصوتات طويلة"([30]).

فالفارابي على هذا أول من استعمل المقطع بمفهومه الاصطلاحي، وكان يستعمله في بعض الأحيان بالمعنى اللغوي([31])، في قوله: "والألحان المسوعة من الآلات ماصيغت ليحاكي بها مايمكن محاكاته من الألحان الكاملة، أولتجعل تكثيرات لها وافتتحات ومقاطع واستراحات إليها في خلال المحاكاة"([32])، فالمقاطع في هذا النص جمع مقطع ولايراد به المعنى الاصطلاحي له، لأن الكلام ليس بسبيله، بل الكلام على مواضع التصرف بالألحان المسموعة، والبدايات، ومواضيع القطع والوقف للاستراحة، فالمقطع هنا إذن يراد به موضع القطع أوالوقف.

مثل ذلك مانجده في مكان آخر قوله: "وما كان من الألحان غير خارج عن العادة فينبغي أن تكون نهايتها كذلك، وما كان خارجا عن العادة وكانت نغمها ممدودة فنهاياتها ومقاطعها ينبغي أن تكون كذلك، وماكان نغمها قصيرة أوكانت متوسطة فمقاطعها أيضا كذلك...وهذه الزيادات قد تزاد في نهايات الألحان اعتمادات ليسهل بها قطع اللحن، فهذا الاستعمال المشترك للكلمة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي يشير إلى أن المصطلح مازال غضا طريا.

يذكر الفارابي نوعين من المقاطع في العربية متجاوزا الأنواع الأخرى، فسمى الأول مقطعا قصيرا، والآخر طويلا، إلا أنه تحدث عن الطويل المفتوح فقط، أي الحرف المتبوع بمصوت طويل، كما ربط بينه وبين السبب الخفيف، كونهما يشكلان نغمة واحدة "وكل مقطع طويل فأن قوته قوة السبب الخفيف"، "وكل حرف متحرك اتبع بحرف متحرك فإنهم يسمونه السبب الثقيل، وقوله: "والسبب الثقيل متى أتبع بحرف ساكن سموه الوتد المجموع لاجتماع المتحركين فيه، وقوله: "والسبب الخفيف متى أتبع بحرف متحرك سموه الوتد المفروق لافتراق المتحركين فيه بالساكن المتوسط، وهذا السبب ربما الذي حال دون اهتمامه ببقية المقاطع الأخرى، لأنه انحرف إلى الدراسة العروضية، ولولا ذلك لكان قد سبق معاصيره بأجيال.

قدم الفارابي للدرس الصوتي العربي خدمة لانظير لها عندما ترجم كتاب أرسطو طاليس، يتعلق بالمقطع الصوتي، فكانت دراسته ردا على كل من أنكر جهود الأوائل فيما يتعلق بالدراسات فوق المقطعية، ومع أن العمل كان البداية عبارة عن ترجمة إلاّ أنه أضاف إليه الكثير من الأمور التي تؤكد أنه كان في كل مرة يقرن ما توصل إليه الفارابي في لغته اليونانية، بما لمسه في اللغة العربية، فالمقاطع مثلا لامعنى لها وهي مفردة في اللغة اليونانية، إلا أن الفارابي لاحظ في العربية بعض المقاطع التي تبقى دالة على معنى وإن كان يختلف عن المعنى الذي تعطيه وهي متوالية، أمّاالمقطع الواحد من مقاطع الاسم فليس بدال لكنه حينئذ صوت فقط يريد بالمقطع: مجموع حرف مصوت وحرف غير مصوت، فأنه متى أخذ شيء منه جزءًا لاسم مفرد لم يكن دالا على جزء المعنى الذي يلي الاسم على جملته لكنه يكون حينئذ كحرف واحد فلذلك جعله صوتا فقط. وينبغي أن يؤخذ على أنه بالإضافة إلى اسم ماأشار إليه، فإن كثيرا من أجزاء الاسم ربما كان اسما مفردا لم يقصد به حيث أخذ جزءًا للاسم المفرد أن يكون جزءًا له، على أنه قد كان اسما دالا، مثل قولنا: أبْكم، في العربية، فإن قولنا أب، وقولنا: كم، كل واحد منهما دال على انفراده، لا من حيث هو جزء لاسم، ولكن يقال في أمثال هذه إن أجزاءها دالة بالعرض.

من خلال ما تقدم ليس بإمكان أي منا إنكار البوادر الأولى للدراسات الفوق المقطعية عند علماء العربية الأوائل، بل إنّنا نجدها قائمة عند هذا الفيلسوف كما يعرفها الدرس الصوتي الحديث، وحتى ولوقال القائل منا إنها لاتعدو أن تكون مأخوذة من الفكر الأرسطي بل بدأت كذلك في بداية الترجمة لكتاب هذا الأخير لكن سرعان ما أخذت أبعادا عربية في روحها ومجال دراستها بل إنّ ماتوصل إليه ليؤكد ذلك من خلال الفرق الواضح بين اللغتين، وإلا كيف نفسر ملاحظته حول المقطع الذي قد يأخذ معنى في اللغة العربية يختلف عن المعنى العام للكلمة التي ينضوي تحتها، ومثل هذا غير موجود في لغة أرسطو.

الإحالات:

[1]- ينظر: "فصول في فقه العربية"، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ط3، 1408-1987، ص 74.

[2]- "ظاهر التشكيل الصوتي عند النحاة واللغويين العرب حتى نهاية القرن الثالث هجري"، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه الدولة في اللغة، إعداد الأستاذ المهدي بوربة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلسمان، ص 270.

[3]- نفسه، ص 271 .

[4]- مناهج البحث في اللغة"، تمام حسان، دار الثقافة، دار البيضاء، المغرب، دط، دت، ص 139.

[5]-"دراسة الصوت اللغوي"، أحمد مختار عمر، توزيع عالم الكتب، ط3، 1405هـ-1985م، ص 282..

[6] - محاضرا في الألسنية العامة، فرديناد دوسوسير، ترجمة يوف غازي، مجيد النصر، دار النعمان للثقافة، جونيه، لبنان، دت، دط، ص 27.

[7]- مناهج البحث في اللغة"، تمام حسان، ص 170.

[8]- أبحاث في الأصوات العربية"، حسام سعيد النعمي، دار الشؤون الثقافية العامة، آفاق عربية، بغداد، العراق، ط 1998، 1 ص8.

[9]-"علم الأصوات العام- أصوات اللغة العربية"، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت،لبنان، دط، دت، ص 97.

[10] -"علم الأصوات العام- أصوات اللغة العربية"، بسام بركة، مركز الإنماء القومي، بيروت،لبنان، دط، دت، ص Grammont9-

[11] -"الأصوات اللغوية"، ابراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، ط4، 1971، ص 159.

[12]- ينظر: مثلا: الأصوات اللغوية، ابراهيم أنيس 163-164، دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر 256مناهج البحث في اللغة، تمام حسان 140.

[13]- علم الأصوات العام،بسام بركة، ص 143.

[14]- سر صناعة الإعراب"، ابن الجني أبي الفتح عثمان، تحقيق حسن هنداوي، ط1، دار القلم، دمشق، سوريا، 1985 9/1

[15]- "مناهج البحث في اللغة"، ص 219.

[16] - ينظر: أبحاث في الأصوات العربية، ص 86.

[17]-كتاب الموسيقى الكبير، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، تحقيق وشرح غطاس عبد المال خشبة، مراجعة د/ محمود أحمد الحنفي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص 63-64.

[18]- المصدر نفسه 1072.

[18]- المصدر نفسه 1072.

[19] - نفسه 1072-1079.

[20]- شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة، الفارابي، تحقيق كوتش ومارو، ط2، بيروت، 1971، ص 49.

[21]- أبحاث في أصوات العربية، ص 91

[22] - نفس المرجع، ص 94.

[23]- نفسه، ص 97.

[24]- نفسه، ص 98.

[25]- نفسه، ص 100.

[26]- نفسه، ص 101

[27]- "دراسة الصوت اللغوي"، أحمد محمد مختار، ص 247.

[28] - كتاب الموسيقى الكبير 1085.

[29] - أبحاث في أصوات اللغة العربية102

[30] - كتاب الموسيقى الكبير 1097

[31]- أبحاث في أصوات اللغة العربية 103، 104

[32]- كتاب الموسيقى الكبير 68-69.